

طريقة الغربيين ليجب إليهم أوطانهم ويعرفهم رجالهم ويبحث عن أمور لا يتيسر لكل إنسان أن يحصل عليها ويتعب المفكرون في جمعها ونشرها فيأخذها جمهور القراء هينة لينة.

الحج المشوق

الإفراج على تغاليهم بالبحث عن شؤونهم الداخلية وعاداتهم ورجالهم وأعمالهم وبلادهم لا يفضلون عن شؤون غيرهم وقد أصاب بلادنا حظ وافر من عنايتهم فكانت بلاد العرب أو مصر والسام والجزيرة والعراق واليمن والحجاز ومراكش والجزائر وتونس وطرابلس وبرقة موضوع أبحاثهم العلمية والأثرية والتاريخية والاقتصادية مما نخجل من كثرته إذا سمعنا بأسمائه ولا نكاد نجد الفرد والفردين منا يتفرون على البحث في النافع من حالات بلادنا وآخر ما كتب عن الأرض المقدسة رحلة للمسيو كومز كاريللو ذكر البلاد التي نشأ منها عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وزارها وكان زار من قبل بلاد اليونان والصين واليابان وكتب فيها رحلات كثيرة وقد وصف مسيره من دمشق وما رآه من جلاله موكب الحجاج القاصدين إلى بيت الله الحرام فوصف الأماكن التي حط فيها رحاله حتى بلغ القدس وقال أنه لم يبق من طبرية عاصمة الأردن غير خراب وقصور هيروودوت والبحيرة المقدسة ووصف قنا والناصرية وما يتخلل تلك الربوع من الجلال والجمال الروحاني وذكر في رحلته ما تم معرفته من أحوال البلاد ولم يكثر من التفاصيل المملة وقال أنه بات في قصر أحد باشاوات سورية واستغرب من عظمة ذاك القصر كيف لم تكن فيه امرأة تونس ربعة وتدخل السرور على ساكنيه.

وقد وصف مواكب الحجاج من دمشق وقال أنهم مجموعة متنوعة من العادات واللغات والقوميات وأن التركي يريد العثماني - والعثمانيون كما قال أكثر المسلمين

تأثراً بالمدينة الغربية - يضع على رأسه منديلاً أبيض مزيناً بالزهور يجعله على طربوشه ثم وصف الفارسي والعربي وعيابه وأبناء جبل طوروس والتتر من أهل نغليس وأزوف وسباستبول وغيرهم وقال لا بد أن يكون بينهم من يملك القصور الفخمة والحدائق الغناء ويعيش عيش الكبراء في الرخاء ومع هذا إذا قصدوا إلى الأماكن الطاهرة يتناسون كل هذا العيش الخصال ويساوون الفقراء من الحجاج في مآكلهم التي لا يوجد منها إلا الخشب الغليظ في البادية وينامون في العراء لا يبالون بحماوة القيط ولا صيانة القر وعجب الرحالة من قوم لا تربطهم جامعة غير رابطة الإيمان وقال ما أعجب صفوفهم وكتابهم وهي تسير على هذا النحو وعجب من وساحة الآسيويين من الحجاج وكيف يتواكلون من صفحة واحدة وفيهم ذو العامة ولا يأنف الباقون ولا ينكر المنكرون وقال أنه لو كان بعض لك في الغرب لقامت القيامة فالشرقي في نظره لا يحسن النظافة وقال أنه علم من بعض علماء دمشق أن المسلمين لا يحجون كلهم فلو كان من كتب عليهم الحج ستين مليوناً مدة خمس عشرة سنة لاقتضى أن يحج كل سنة أربعة ملايين في حين لا يجتمع في عرفات أكثر من مائة ألف وقال إن إخلاص المسلمين في العبادة يوم يقصدون الحج لم ير مثله في كنيسة القديس بطرس في رومية يوم يحضر المسيحيون من أقطار الأرض في الحفلات العامة ولا في البيع الكبرى القديمة في ساجان دي كومو بوسل أمام ضريح الرسول (الحواري) ولا في لورد من أعالي جبال البيرنيه وهي محج كثيرين ولا في أشيلية في الجمعة المقدسة ولا في روسيا يوم يأتي فلاحوها المحضون يضربون رؤوسهم وجباههم على بلاط المعابد ولا في أية مدينة مسيحية. وهكذا استرسل في وصف تقوى المسلمين وتفانيهم في إقامة شعائر دينهم نقل بعضه عن أحد علماء دمشق وبعضه مما عليقه عنده وقال أن المسلمين مولعون بلقب حاج أكثر مما أولع أهل المملكة العثمانية

بلقب بك أو باشا وفي الكتب أمور حرية بالتدبر فكان كاتبه مغرم بإظهار فكره في شأن البلاد التي دخلها والمعاهد التي زارها وقد حمد مقامه في فلطين في أديار الفرنسيكان ووصفهم بالطبع أجمل وصف.

حياة بابل

ذكرت بعض الصحف العلية أن التوراة ترجع تاريخ بابل إلى أكثر من سبعة وثلاثين قرناً قبل المسيح وكانت على عهد ملكها العظيم يختصر أي قبل الميلاد بستة قرون عاصمة العالم بأجمعه وسكانها خمسة وعشرين مليوناً وهي من الارتقاء على جانب عظيم جداً وموقع بابل على الفرات وقد اشتق اسمها حديقة الحدائق من خصبها وأمرائها. دمرها الفرس على عهد قورش وخلفائه وتركوها أنقاضاً ينعق فيها غراب الدمار وما هي اليوم منذ أكثر من ألفي سنة عبارة عن قفر يجيء بعض العلماء فيستطون آثاره ويتعرفون أخباره.

وسكان هذا المكان الذي طالما بكى في أرجائه أبناء صهيون الإسرائيليون هم أناس من العرب الرحالة ولكن ذلك لم يطمس من ذكرى حضارتها معلماً فقد ذكر هيرودوتس المؤرخ أن بابل أخصب البلاد بمخضتها تأتي حبتها مئة وزيادة بيد أن العلم الحديث حل هذا المص في خصب بلاد تلك الأصقاع وهو أنه كانت تروى كلها فلول قنات لها خزانات وسدود كما كان لها على عهد سعادتها كما قناتاً لمصر خزان أسوان فروى النيل عشرات الألوف من الأفدنة التي كانت محرومة من السقيا لعاد إلى بابل خصبها المدحش وأتت السنبلة مئة سنبلة وزيادة.

ولقد وقع في دهن الإسكندر الكبير في آخر عهده أن يعيد إلى ذلك الصنيع بماء القديم فأنشأ ترعتي بالأكوبوس والنهروان وطول الواحدة ٤٨٠ كيلومتراً وطول الثانية ٢٥٦ كيلومتراً ليحب مياه دجلة إلى داخل المدينة إلا أن أخلافه غفلوا عما